

المشروع السياسي الكانطي والمعقولية الكونية

The Kantian political project and cosmic rationality

وليد يوسف

كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة أحمد بن محمد وهران 2، الجزائر

تاريخ النشر: 2020/12/30

تاريخ القبول: 2020/11/22

تاريخ الاستلام: 2020/11/12

ملخص: تشكل فلسفة الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط ظاهرة متميزة في تاريخ الفكر الفلسفي وذلك من خلال فلسفته الجديدة والتي اختلفت عن سابقتها منهجا وغاية سواء في مجالها المعرفي أو الأخلاقي أو السياسي حيث مثلت هذه الأخيرة فلسفته النقدية الكونية والتي تعد ثورة حقيقية ممزوجة بروح الأنوار وتمسكة بالزعة العقلية التي كانت سائدة في ذلك العصر.

وبالنظر إلى هذه المكانة والأهمية التي تتميز بها الفلسفة الكانطية في الساحة الفكرية خاصة فلسفته السياسية القائمة على فكرة الكونية (دولة عالمية يسودها السلام) إذن فالمشروع السياسي الكانطي يحمل إبعاد كونية تمتاز بالمعقولية في تأسيسها والخطاب الأنواري الذي انطلق منه في تحقيق هذا المشروع المدعم بقاعدة أخلاقية قائمة على فكرة الواجب لكن الإشكال المطروح هو ماهي الأسس التي اقام عليها كانط فلسفته الكونية وهل للأخلاق دور مهم في تأسيسها؟

كلمات مفتاحية: الفلسفة النقدية، الكونية، الأنوار، المعقولية، الأخلاق.

Abstract: The philosophy of the German philosopher Emmanuel Kant is a distinct phenomenon in the history of philosophical thought through his new philosophy. It differed from its predecessor approach and purpose whether in its cognitivae, moral or political field, where the latter represented his universal critical philosophy, which is a real revolution full of lights and sticking to the mental tendency of that era.

If we look to the place and the importance that characterizes the Kantian philosophy in the intellectual arena, especially his political philosophy which is based on the idea of universality (a world state dominated by peace). Then, the Kantian political project carries universal dimensions characterized by reasonableness in its foundation and the enlightening discourse from which he began to achieve this project. The plan is supported by a moral basis based on the idea of duty, but the problem is what are the foundations on which Kant founded his universal philosophy and does morality have an important role to play in establishing it?

Keywords: Critical philosophy; universality; The lights; Reasonableness; moral.

المقدمة :

تشكل فلسفة الألماني إيمانويل كانط ظاهرة متميزة في تاريخ الفكر الفلسفي، وذلك من خلال فلسفته الجديدة والتي اختلفت عن سابقتها منهجا وغاية، سواء في مجالها المعرفي أو الأخلاقي أو السياسي حيث مثلت هذه الأخيرة فلسفته النقدية الكونية، والتي تعد ثورة حقيقية مفعمة بروح الأنوار و متمسكة بالنزعة العقلية التي كانت سائدة في ذلك العصر.

وبالنظر إلى هذه المكانة والأهمية التي تتميز بها الفلسفة الكانطية في الساحة الفكرية خاصة فلسفته السياسية القائمة على فكرة الكونية (دولة عالمية يسودها السلام)، إذن فالمشروع السياسي الكانطي يحمل أبعاد كونية تمتاز بالمعقولية في تأسيسها والخطاب الأنواري الذي انطلق منه في تحقيق هذا المشروع مدعما بقواعد أخلاقية أبرزها فكرة الواجب، لكن الإشكال الذي يدفعنا إلى طرحه هو: ما هي الأسس التي أقام عليها كانط فلسفته الكونية؟ وهل الأخلاق لعبت دور مهم في تأسيس هذه الفلسفة؟

2. دور العقل في فلسفة كانط:

يحتل العقل مكانة أساسية في مشروع كانط النقدي. فإذا كان هناك من يرفض العقل في تأسيس المعرفة كالاتجاه التجريبي الذي أعطي للحواس الريادة في تحصيل المعارف لقد كانت كل معارفنا تنطلق من التجربة وتنتهي بالتجربة، وأن التجربة وحدها تقدم تصورات للعقل، وقد كان العقلانيون يرون في هذه الفلسفة تعبيرا عن استسلام العقل، فنحن ننسب وجود الأفكار العامة إلى قوة العادة والمبادئ التي يفهم بها الواقع، فكأننا بذلك ننكر الحقيقة والعقل¹.

وفي ظل هذا الصراع القائم بين التيارين (التجريبي، والمثالي) خرج كانط بحل توفيقي. بحيث يستهل كتابه (نقد العقل الخالص) بقوله: "... تبدأ كل معارفنا مع التجربة ولا ريب في ذلك البتة، لأن قدراتنا المعرفية لن تستيقظ إلى العمل، إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا ..."²، ولعل أبرز ما يمكن فهمه من هذا القول أن للتجربة دورا فعالا في تحصيل المعرفة. فهي المسؤولة عن نقل الموضوعات بحيث أن تكون بمثابة المنبه والعضو الناقل أو المكون لمعارفنا.

لكن كانط بالرغم من تأكيده على دور التجربة والحواس في نقل الموضوعات الخارجية ومساهمتها في تكوين وتحصيل المعرفة، إلا أنه يحرصها في غاية وطبيعة واحدة فقط وهي نقل الموضوعات الخارجية ف" التجربة تبقى مرتبطة بالطبيعة ولا يمكن أن تتعدها فهي تنقل ما هو واقعي محسوس ليتعدى عالم الطبيعة فهو موضوعاتها"³

فللتجربة دور محدود لا يتعدى نقل الموضوعات الخارجية من العالم الواقعي.

أما بالنسبة للعقل فلديه غايات أسمى فهو لا يحقق غايات الطبيعة فقط ففي نظر كانط " إذا كان العقل لا يفيد إلا في تحقيق غايات للطبيعة فلماذا تكون له قيمة أسمى من مجرد الحيوانية ⁴، هذه حجة يقدمها كانط يوضح فيها دور العقل فالعقل دور أسمى يمكنه أن يتجاوز الواقع والعالم الخارجي إلى ما هو مطلق خارج عن دائرة التجربة ولا هميات أخرى خارج ذاته حيث يعتبر كانط " أن كل المفاهيم لا بل كل المسائل التي يقترحها العقل، هو الذي ولد هذه الأفكار في أحشائه وهو الملزم إذا بتبيان قيمتها أو بطلانها ⁵، ومن أهم هذه المفاهيم والتصورات التي يقصدها كانط هي الأفكار القبلية، والتي تنحصر بالخصوص في الميتافيزيقا والرياضيات ف" فالرياضيات كعلم مجرد تقدم مثالا ساطعا على كيف أن نذهب بعيدا في المعرفة القبلية بمعزل عن التجربة ⁶، وهذا ما يؤكد أن للعقل معرفة قبلية متعالية قادر على بلوغ الحقيقة بمعزل عن التجربة الحسية.

1.2 مفهوم العقل عند كانط:

يعرف كانط العقل قائلا: "... الملكة التي تمنحنا المعرفة القبلية والعقل النظري هو ذلك الذي يحتوي على المبادئ التي تساعدنا على معرفة أي شيء معرفة قبلية محضة، أن آلة العقل أو أدواته هي مجموعة من المبادئ التي يمكن على أساسها تحصيل جميع المعارف القبلية الخالصة وتكونها بصورة واقعية ⁷، فالعقل من خلال هذا المفهوم هو منظومة مبادئ قبلية لا تتوقف حقيقتها على التجربة، بل يمكن صوغها منطقيا ونحن نعرفها معرفة قبلية ⁸.

فالعقل من خلال المعرفة القبلية بإمكانه الوصول إلى معرفة تتجاوز ما هو حسي معطي، وهذا ما سعى كانط إلى البرهنة عليه أي المعرفة الميتافيزيقية الصادرة عن العقل، فالعقل وحده هو القادر على بلوغها وهكذا يكون كانط قد أعطى الأولوية لا للإدراك الحسي، بل يجعل هذا كله غير ممكن إلا داخل المبدأ أو المفهوم أو الشرط العقلي الأولي وعلى هذا فهو يسحب البساط من تحت قدمي الانطباع الحسي ليعطي الأولوية للعقل على الواقع ⁹.

والعقل الذي يقصده كانط هو العقل النظري والذي قسمه كانط إلى جملة من الملكات أو القوي الفكرية تعمل بصورة متكاملة وهو تقسيم نظري لا علاقة له بالتجربة، بحيث أجمع كانط هذه الأقسام بثلاث ملكات:

ملكة الحساسية: وهي التي تمدنا بصورتي الزمان والمكان بوصفهما مفهومين قبلين لا تتعين الظواهر التجريبية للظواهر إلا بهما.

ملكة الفاهمة: وهي التي تتضمن الوحدة للظواهر عن طريق بعض القواعد والمقولات.

ملكة المبادئ " وهي أسمى قوانا الفكرية ومهمتها توجيه قواعد الحساسية تحت مبادئ ملكة الفاهمة كي تضيفي على معارفنا طابع القبليية"¹⁰.

2.2 أقسام العقل عند كانط:

هناك نوعين من التقسيم الذي سلكه كانط، تقسيم عام للعقل بصفة عامة، وتقسيم خاص للعقل بصفة خاصة، بحيث نجد كانط في هذا التقسيم قد تنازل عن تلك التقسيمات التقليدية في الفلسفة، مثلما هو معروف عند أرسطو والفلاسفة المسلمين وفلاسفة العصر الوسيط المسيحي، من قولهم عقل بالقوة وعقل فعال، وعقل أول، واستبداله متقسم يفصل مباشرة بنظريته للمعرفة والمتمثل في العقل النظري والعقل العملي:

العقل النظري: وهو ملكة الحساسية وملكة الفهم، وملكة المبادئ وهو مصدر معارفنا القبليية، ويعتبر هذه التقسيمات خاصة بالعقل النظري.

العقل العملي:

وهو ملكة القيم أو الغايات الأخلاقية.¹¹

ومجال العقل النظري هو البحث فيما الطبيعة التي هي خارج نطاق التجربة مثل لإدراك النفس والحرية والله "فالحس العقلي هو الذي يقر بمبدأ العلية وبلزوم التالي عن المقدم مثل ارتباط الواجب لا الحرية والنفس بالخلود، ومن الخلود إلى الله بقوة ارتباط هذه الحدود فيما بينها، فهو إذن يستدل لا استدلالا نظريا. وبالتالي فإنه بمقدور العقل النظري أن يقيم ما بعد الطبيعة"¹²، ما يجعل العقل النظري أسمى من العقل العملي فهو يقدم الشاهد على فطرة العقل وقوته وغلبة الطبع للتطبيع.

وتظهر علاقة العقل العملي بالعقل النظري في فلسفة كانط من خلال نظريته الأخلاقية، بحيث أعتبر أن العقل الخالص يمكن عمليا وهذا ما يتضح في قوله: "... أن العقل مصدر مبادئ مستقل عن الدوافع الخارجية، كما يجب عليه بوصفه عقلا عمليا أو إرادة كائن عاقل أن يعد نفسه حر الإرادة الكائن العاقل لا يمكن أن تكون إرادة ذاتية إلا بالقياس إلى فكرة الحرية، وهذا ينبغي لمثل هذه الإرادة من وجهة النظر العملية أن تضاف إلى جميع الكائنات العاقلة..."¹³، فالإنسان بوصفه كائن عاقل قادر على أن يكون مصدر التشريع الذاتي وهذا التشريع لا بد أن يجمع بين ما هو نظري وما هو عملي، من خلال الإرادة التي يحكمها العقل وهذا الأخير لا بد أن يجمع بين ما هو نظري وما هو عقلي، التي يحكمها العقل وهذا الأخير لابد أن يتمتع بالحرية التي هي شرط أساسي لكل فعل أخلاقي نابع من الذات والإرادة الخيرة.

وعليه فإذا توفرت الإرادة التي يحكمها العقل إلى جانب الحرية إلى ذلك الحد باستطاعة العقل أن يكون مصدر لجميع أفعالنا وقيمنا الأخلاقية "فالحرية والخلود والله موضوعات يؤدي إليها العقل العملي مع عجز العقل النظري عن البرهنة عليها"¹⁴، وإذا كان العقل الخالص في المجال النظري يتضمن مجالات التجربة فإنه في المجال العملي يتضمن مبادئ الفعل وفي هذا الصدد يقول كانط: "... يتضمن العقل الخالص، إذا لا استعماله التأملي بل في استعماله العملي أي الأخلاق، مبادئ استخدام إمكانية التجربة، أعني إمكان مثل تلك الأفعال التي يمكن أن توجد في تاريخ إنسان وفق لوصاياه الأخلاقية..."¹⁵.

ولقد ربط كانط بين العقل العملي والنظري من خلال "... ضرورة استخدام العقل النظري والعملي معا في بناء ميتافيزيقا الطبيعة وميتافيزيقا الأخلاق، ويؤكد ضرورة تكاملها في بناء أي ميتافيزيقا مهما تباينت موضوعاتها أو غايتها..."¹⁶.

3.2 غاية العقل عند كانط:

إن ما يهمننا من كل ما سبق هو أهمية العقل والغاية المرجوة منه، وكذا الدور الذي سيلعبه في بناء مشروع الأنوار حيث نجد كانط يؤسس أخلاقه الكونية على العقل باعتبار هذا الأخير الضامن والمجسد لهذه الكونية الأخلاقية من حيث الأسس والمبادئ القبلية الأولية الذاتية والصالحة لكل زمان ومكان، حيث يجسد العقل البشري الذي يعد مصدر القانون الخلقي وموضوعه في نفس الوقت فكرة الكونية في مختلف المجالات السياسية، والأخلاقية، وهذا ما يتضح في قول كانط: "... نعني من خلال العقل قانون تخضع جميع سنن الأدبية، كان النظام الطبيعية يجب أن نستولد، من إرادتنا لذلك فإن هذا القانون، يجب أن يكون من نظام طبيعي..."¹⁷، فكانط يحاول أن يبني مشروع كوني يلعب فيه العقل دور الحاكم لجميع أفعالنا وسلوكياتنا التي تخضع لمبدأ الإرادة الخيرة من خلال العقل يمكن بلوغ الإنسان الكمال، وتحقيق السعادة ويضمن من خلاله جميع حقوقه، وذلك بارتكازه على النقد الذي سيصبح ضرورة لبناء مجتمع عقلاني.

" فإذا كان لكل عضو لكل عضو طبعته والتي هيأ على أكمل وجه لتأديتها، فكذلك الحال في الحياة العقلية فوظيفة هذا الأخير في الهيمنة على سلوك الإنسان وقيادته نحو الخير"¹⁸.

إذن فقيمة العقل وأهميته تتمثل في أنه يستطيع الاستغناء عن التجربة والتأثيرات الخارجية، وإذا كان ذلك في المجال العملي والأخلاقي تكون مهمته سن وتشريع قوانين السلوك حيث يظهر في شكل أوامر ونواهي، وبالتالي يكون العقل هو الحكمة التي من خلالها يشرع للعقل الأخلاقي المرغوب فيه فالمواضيع

الوحيدة للعقل العملي هي مواضيع الخير والشر ذلك أننا بالخير نقصد ونعني موضوعاً مرغوباً فيه بالضرورة وفقاً لمبدأ العقل، وبالشر نعني موضوعاً نعرض عنه بالضرورة و أيضاً وفق مبدأ العقل¹⁹ وبهذا يكون "دور العقل في فلسفة كانط أكثر شمولية، فلم يعد العقل مصدراً للمعرفة النظرية فقط، ولكنه بات منتشرًا في أنحاء الفكر والواقع، متماثلاً مع السياسة والأخلاق والتاريخ فلم يعد العقل مجرد وسيلة معرفية، وإنما أضحت أداة الإنسان الأساسية في خروجه من حالته التي يسودها القصور

20

3. كانط ومشروع الأنوار:

مفهوم الأنوار: يعتبر كل من هوركهايمر وأدورنو أن "التنوير وعلى مر الزمن وبالمعنى العريض تعبيراً عن فكرة التقدم، وهدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيداً²¹، فالتنوير بهذا المعنى هو محاولة التخلص من كل القيود التي تعيق الإنسان في سعيه نحو بناء الحضارة وهذا لن يكون إلا إذا تخلص من الخوف، بحيث يصبح قادراً على التعبير عن مجمل أفكاره وبالتالي يصبح سيداً، إذا كان مشروع يهدف بالأساس إلى التخلص من القيود وهو خطوة نحو الأمام، وبهذا المعنى العام لكلمة التنوير.

أما في المعنى الخاص "فالتنوير هو مشروع سياسي وفلسفي ساد أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويتميز بفكرة التقدم وعدم الثقة بالتقاليد، والتفاؤل والإيمان بالعقل والدعوة إلى التفكير الذاتي وقد حاول ممثلوه أن يصححوا نقائص المجتمع القائم وأن يغيروا أساليبه، وسياسته، وأسلوبه في الحياة، بنشر آراء في الخير والعدالة والمعرفة العلمية"²²، ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نستخلص أهداف مشروع الأنوار ومن أهمها العمل بالعقل وعدم التمسك بالتقاليد الموروثة من العصور الوسطى وهنا نقصد العصر اليوناني، والعصر الوسيط المسيحي، فالعقل هو السيد وتكون روح الانتقاد هي السائدة "فهو مشروع يهدف إلى تحرير الإنسان من الخرافة والسحر والمعتقدات الفاسدة قصد إخراجهم من وضعه السلبي والدفع به ليمارس حريته ويحقق سعادته وتقدمه"²³ فأبرز القيم التي قام عليها مشروع الأنوار هي العقل، والحرية والتقدم ففكرة التقدم لا يمكن التحقق إلا بالتفكير العقلي وتعرض كل المعارف إلى محك النقد، وهذا لا يكون إلا بوجود الحرية كشرط أساسي لتحقيق ذلك، فالحرية الفردية هي التي تضمن لكل فرد التعبير عن أفكاره ونقده للواقع.

1.3 مرتكزات مشروع الأنوار:

لقد قام مشروع الأنوار على مجموعة من الأسس والمبادئ التي شكلت سماته الأساسية "ولو أعلمنا التحليل الكهني الميتافيزيقي للحدث وجدنا أنها إتسمت بسمات ثلاث لم تتوافر في عهد سابق وتمثل في الذاتية والعقلانية والحرية وذلك استناداً إلى كثرة تردد هذه السمات على لسان الحداثيين²⁴، فهذا العهد

يختلف على العهود السابقة في كونه جاء ليحرر الإنسان ويجعله مركز الكون، ومصدر الحقيقة وكل الفلاسفة المحدثين كان لهم نفس الغاية وهي تحرير الإنسان بالاعتماد على نفس الوسيلة وهو العقل، وهذا ما سنجدّه عند الفيلسوف الأنوار كانط، فمشروع الأنوار جاء ليقب على الماضي ويطلق العنان للعقل الضامن لاستقلالية الفرد وحرية وهذا ما جسده مبادئه ومركزاته الثلاث:

أ- الذاتية: يشكل مبدأ الذاتية القاعدة الأساسية لمشروع الأنواع فالأنوار في أولوية الذات وانتصار الذات ورؤية ذاتية للعالم، ومعنى ذلك أن الإنسان الحديث أضى يري صورته في امرأة مجلوة فيتمثل من خلالها العالم بعدما كان ضباب القرون الوسطى يحجب عنه الرؤية الواضحة فقد أضى إنسان العصور الحديثة يدرك نفسه بذات مستقلة ذات هي علامة على صاحبها مبيان لحاملها²⁵.

ف "التوازي مع تصور الشعب تحصل الفرد أيضا عن الاستقلالية، فصار يسعى إلى التعرف على العالم دون الرضوخ إلى سلطات الماضي ويختار دينه بحرية كما صار من حقه التعبير عن أفكاره في الفضاء العمومي وتنظيم حياته الخاصة وفق ما يرى"²⁶، فيصبح الإنسان يعبر عن تصوراتهِ دون ضغوط أو إكراه ويعتبر ديكارت أبرز من أسس هذا المشروع على الذاتية (كوجيتو) كأساس للحقيقة واليقين.

ب- العقلانية: إذا كان ديكارت نادى بمبدأ الذاتية فإن لايبنتز (1646-1716) هو أول من أسس الحدائفة الفلسفية على مبدأ العقلانية نقصد المبدأ القائل لكل شيء سبب معقول، ومعنى هذا القول أن الإنسان تحول من متأمل للكون ومعجب ببديع خلقه إلى غاظه منقلب عن أسرارهِ²⁷، فالإنسان هو الكائن الوحيد القادر على فهم ما يحيط به، بوصفه الكائن الحي العاقل الذي من شأنه أن يعلل ويبرر، وبالتالي يمكن أن يتطور ويتقدم نحو الأفضل.

والأخذ بمبدأ العقلانية كان له انعكاسات على القول الفلسفي في هذا العصر منها، بحيث "أصبح العلم الموجه الذي يقود الفلسفة الحديثة وظهور مفهوم الكلية التي تعنى النظرة الشاملة العامة للأشياء، فلقد أصبح هذا المفهوم معيار القول الفلسفي"²⁸، فالعقلانية هي السمة البارزة في هذه الفترة بحيث لا يوثق إلا في العقل القادر على تحقيق ما عجزت عنه الوسائل الأخرى.

"ولقد حدث أن تشبث المحدثون بحريتهم هذه حد الهوس واعتبروا أنهم وحدهم كانوا أحرارا، أما القدماء فقد عاشوا أعمارا في مجتمعاتهم خاملة الذكر شأن النبتة وسط الاعشاب أو النخلة في الخلية أو النملة في القرية"²⁹.

4. الخطاب التنوري عند كانط:

إن أهم ما يميز العصر الحديث هو أنه حاول أن يحرر الإنسان من التصورات الدينية، ويجعل من الحياة الدنا، محور الاهتمامات البشرية، بحيث نمت أفكار جديدة في هذا العصر حول الكون، والإنسان

والمجتمع، والدولة، ولقد حاول كانط في هذا العصر مثل غيره من الفلاسفة أن يؤسس مشروعه القائم على العقل والذي يهدف من خلاله إلى تحرير الضمير الإنساني، وتحقيق كل ما يخدمه أي تحقيق الأنوار. وهذا ما تجلى في مقاله الذي نشره في المجلة الألمانية عام 1784 بعنوان ما التنوير؟ حيث يقول: "... إنها خروج الإنسان من حالة القصور التي مر عليها بخطأ منه، وبسبب انعدام القدرة لديه على استعمال عقله دون توجيه إلى الغير..."³⁰، فالإنسان هو الذي وضع نفسه بنفسه إلى القصور الذي هو فيه، وهذا راجع إلى عدم استعمال عقله في التخلص من هذا القصور وليس عجز منه -العقل- أو عدم قدرته على ذلك ولكن حسب كانط يرجع إلى " افتقار الإنسان إلى التصميم وإلى الشجاعة في استغلاله دون توجيه ما ودون وصاية"³¹، فالعقل إذا وجد الشجاعة الكافية والحرية اللازمة بالإضافة إلى التخطيط المحكم في هذه الحالة يمكن أن يؤدي ما عليه، ويتجاوز حالة القصور فالإنسان هو المسؤول الأول عن تبعية أو وصاية خارجية لذلك كان شعار كانط في مشروعه الأنواري هو " تجرأ على أن تعرف كن جريئاً في استعمال عقلك أنت "³².

فاستعمال العقل هو الحل الذي قدمه كانط لأنه الوسيلة الوحيدة التي يمكن للإنسان من خلالها أن يتخلص من التبعية، وهذا حال المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى حيث وصفه كانط بالقطيع الذي لا يمكن أن يتحرر من صاحبه " فبعد أن صير هؤلاء البشرية قطيعاً من الحمقى، واحتاطوا بحصافة كي لا تجرؤ هذه المخلوقات الوديعية أن تخطو خطوة واحدة خارج الحظيرة حيث حبست "³³، استعمل كانط كلمة قطيع للدلالة على الشعب العاجز الذي لا يتحرك إلا بأمر ولا يفعل سوى ما هو مطلوب منه، وكلمة الحمقى تدل على عدم استعمال العقل، فالشعب بهذا المعنى حيوان مدجن وخاضع، إنه يصير مخلوقاً ضعيف سجيناً لجهاز الترويض وألياته، بحيث يصعب للمرء أن يتحرر بمفرده من حالة القصور، ويعجز عن استعمال عقله، لأنه لا يسمح له باستعماله من جهة، ولم يتشجع على استعماله من جهة أخرى، فبقي تحت الوصايا، وسلم نفسه للأوصياء فرضوا ذواتهم عليه فهم سجناء في أيدي الأوصياء، ويقصد هنا كانط رجال الدين ورجال السياسة الذين سيطروا على عقول الأفراد وعلى العقل وهذا ما يتضح في قوله: "... لا بد للعقل أن يخضع لأي قانون آخر سوي القانون الذي يسنه لنفسه، ونقيضها هو قاعدة استعمال العقل بلا قانون، ونتيجة ذلك طبعاً، هي هذه، إذا كان العقل لا يريد أن يخضع للقانون الذي يسنه فلا مناص من أن يرزح تحت القوانين التي سنّها له غيره..."³⁴، فلا بد أن يكون العقل سيد نفسه وذلك بإتباع القوانين الخاصة به، فعجز العقل عن سن القوانين، أو ما يعرف بالتشريع الذاتي يعرضه إلى التبعية وإلى إتباع القوانين يسنها غيره، ويمكن في كثير من الأحيان مكرهاً ومجبوراً على إتباعها، ولهذا فإنما أن يكون العقل خاضعاً لنفسه وذلك بإتباع قوانينه والعقل المستنير هو

الذي يخضع لقوانينه الذاتية البعيدة عن كل وصايا خارجية، إذ لابد للعقل أن يخضع لقوانينه لأنه الوحيد القادر على تحديد مصيره.

وما يمكن قوله أن فلسفة الأنوار " لم تكتف بالإيمان بقدرة العقل على احتراق الحدود التي فرضتها عليه الميتافيزيقا والمؤسسة الكنسية، والمجهود الرئيس لفلسفة الأنوار لا يقتصر على مواكبة الحياة وتأملها في مرآة التفكير فحسب بل أنها تعترف للعقل بقدرته على تنظيم الحياة³⁴، ومشروع الأنوار مر منذ نشأته بمراحل، عديدة تمثل المرحلة الكانطية أهم مراحلها ولحظاته، فهي قمة هذه الثورة، لأن النقد أصبح هو المسيطر على جميع مناحي الحياة، فمع هذه اللحظة دخل العقل مرحلة جديدة أنها مرحلة النقد، بحيث أصبح كل شيء معرض لمحك النقد، حتى العقل قابل للمساءلة من طرف العقل، فالعقلانية التي مرت عليها الفلسفة الحديثة تخصبت على يد كانط، وتوسع مجال الحرية التي اعتبرها كانط ضرورية لضمان حقوق العقل وجميع الحقوق الفردية، ويطرح فكرة الحقوق نجد كانط حاول أن يؤسس مشروع كوني يضمن الحياة السعيدة للإنسانية جمعاء، وهذا ما نجده في مشروعه السياسي الذي سوف نتطرق إليه.

5. مشروع الدولة الكونية عند كانط

1.5 فكرة الكونية عند كانط وأبعادها السياسية:

ترتبط فكرة الكونية عند كانط باعتبارها أهم ما يطمح إليه في مشروعه الإنساني الذي يريد أن تزول فيه الفوارق ويتحقق فيه السلام بحيث نجد كانط قد ينسب تطوراته النظرية كما العملية على أساس من طبيعة ثابتة في الإنسان وهي مشتركة بين الجميع أنها العقل الذي تقوم عليه الأخلاق والسياسة³⁵، فالعقل يعتبر هو الأساس والقاعدة الصلبة التي يمكن أن تؤسس عليها فكرة الكونية " وهذه الفكرة التي تسير هذا الكون لم تكن وليدة الفكر الكانطي وإنما نادت بها المدرسة الرواقية في الفلسفة القديمة بحيث يركز مشروعها على مبدئين أساسيين أن الكون محكوم بقانون مطلق لا يسمح بأي إسناد وأن الطبيعة الجوهرية للإنسان هي العقل وبالتالي فقوانين الكون ثابتة ومطلقة، ولا يمكن أن تتعارض مع العقل الذي يتوافق مبادئه مع الطبيعة أو الكون³⁶.

فالنظام القائم هو تعبير مباشر عن النظام العقلي للكون، غير أن كانط كان شمولية وواقعية من خلال ربط فكرة الكونية بالواجب، الذي يلزم الفرد على القيام بأفعاله اتجاه الآخرين وفق مجموعة من القواعد التي صاغها من خلال ربط الواجب بالأخلاق والتي تتلخص في ثلاثة قواعد هي:

- اعمل كما لو أن القاعدة المنظمة لعملك شاملة وطبيعية.
- اعمل بالكيفية التي تمكنك من معاملة الإنسانية في شخصك وأشخاص الآخرين لا كوسيلة فحسب إنما كغاية في ذاتها.

■ اعمل كما لو أنك بالنسبة لغايات عملك فاعل ومشرع في الآن ذاته.

هذه المبادئ تحدد الاكتفاء في أوجه الثلاثة: الشخصي والجماعي والعالمي السياسي³⁷.

ويمكن القول من خلال هذه القواعد أن كانط يريد أن يجعل من الفرد المشروع القادر على تحديد سلوكه طبقا للعقل المستقل عن أهواء العالم المحسوس، " فإن بناء دولة يحكمها قانون الواجب، وتسير أفرادها النوايا الفاضلة هي أقصى ما تطمح إليه البشرية، لا شيء يستطيع أن يضمن التطبيق الجيد الدائم والعامل للقانون أفضل من النية الداخلية"³⁸.

فلا بد أن يتمتع الإنسان بكامل الحرية وأن لا تكون هناك سلطة خارجية، أو إكراه يلزم الفرد على فعل شيء ما أو تركه، بل لابد أن نتركه يقرر فعل الخير متى أراد ذلك، لأنه في غياب السلطة الخارجية التي كانت تلزم الفرد على فعل الخير أو احترام القانون بإكراه، سوف يتغير متى وجد نفسه أكثر حرية، وأصبحت السلطة الخارجية التي كانت تلزمه غائبة، وهذا راجع إلى انعدام النية الداخلية لفعل الخير لذلك كانط يرفض الأفعال الخيرة التي لا يكون مصدرها الواجب الأخلاقي الذي تحكمه الإرادة الخيرة والحرية التامة، فالمبدأ الذي لا بد أن يلتزم به الفرد يصوغه كانط في القاعدة التالية " افعل تبعا للقاعدة التي يمكن في عين الوقت أن تبني ذاتها في قانون كلي"³⁹، هذا القانوني يمكننا حسب كانط من بناء دولة عالمية يسودها السلم.

" والجمهورية الفاضلة هذه سوف لن تكون بحاجة سوف لن تكون بحاجة إلى العقل المدني، ولا إلى السلطة الخارجية ما دامت النية الداخلية في كل فرد، قادرة على التحول الذاتي لأنه يسير قانونا عاما، وما دام كل فرد فيها قادرا على احترام القانون العام بحرية ذاتية⁴⁰، فالإنسان يمكنه العودة إلى الذات كمبدأ للتشريع حيث يقول كانط: "... إن العقل هو المصدر الأعلى لكل تشريع قانوني..."⁴¹.

2.5 الدولة والفرد عند كانط:

يعتقد كانط أن بناء وتأسيس دولة ضروري لضبط العلاقات بين الأفراد، وتختلف نظرتهم إلى هذه الدولة عن سابقتها من حيث الدور والنظام الذي تقوم عليه، إذ لا يشترط في الدولة الكانطية الفضيلة الأخلاقية لكي يصير الإنسان مواطنا، فكانط يشترط الذكاء والقدرة على الفهم وتطبيق القانون المدني بحرية، فالدولة عندما تدعي حق تحديد الفضيلة والخير فتصبح وسيلة لهدم الحرية والشعور وهكذا فقد تجنب كانط السقوط في النظرة الاستبدادية، سواء باسم الفضيلة أو باسم المصلحة الخاصة حيث فصل موضوع السياسة عن موضوع الأخلاق وموضوع القانون عن موضوع الواجب، فبعد أن حدد ماذا أستطيع أن أفعل فلا بد إذن من تشريع للسياسة على الإكراه المادي الخارجي للتنظيم المدني وليس على الإكراه الأخلاقي الداخلي⁴²، فلا بد من توفر الحرية الفردية التي تمكن الفرد من استخدام عقله.

ولتحقيق التوازن العام بين الفرد والدولة يرى كانط أنه لابد نظام ودستور يكون القاعدة الأساسية بين أفراد الدولة الواحدة، ويقترح كانط الدستور الجمهوري حيث يقول: "... يجب أن يكون دستور المدينة في كل دولة دستورا جمهوريا، لأنه قائم على مبدأ الحرية وقائم على مبدأ تبعية الجميع لتشريع واحد مشترك من حيث فهم مخاطبون بهذا التشريع القائم على المساواة بين هؤلاء المخاطبين باعتبارهم مواطنين ..."⁴⁴،

3.5. علاقة الأخلاق بالسياسة عند كانط:

في مشروعه نحو السلام الدائم يرى كانط أنه لا بد من السياسة أن تخضع للعامل الأخلاقي طالما أن الأخلاق هي الهدف الأسمى للإنسان " فتحقيق السلام الأبدي لم يعد خيرا ماديا فحسب، بل شرطا صادرا عن تقديس الواجب الأخلاقي"⁴⁵، فمشكلة السلام عند كانط أخلاقية بدرجة الأولى فبدون أخلاق لا يمكن أن تتقدم الإنسانية.

ولهذا على السياسة وما تبعها من تشريعات ونظم أن تتبع المبادئ الأخلاقية لأنه في نظر كانط " أن السياسة الحقيقية لا تستطيع أن تحقق خطوة واحدة قبل أن تنحني إجلالا للأخلاق وعلى الرغم من السياسة تشكل لحد ذاتها فن مبدعا فإن اتحادها بالأخلاق ليس فنا في شيء، لأن الأخلاق تحسم العقد يستعصي على السياسة حلها فور تعارضها مع الأخلاق"⁴⁶، إذن ما يمكن تأكيده هو أن الأخلاق عند كانط هي عقيدة الحق وبالتالي تكون الأخلاق أعلى مرتبة من السياسة هذه الأخيرة لابد أن تكون نابعة من فكرة الواجب الأخلاقي الذي يفرض نفسه على ضمائر أولئك الذين يسعون إلى ضبط العلاقات المتبادلة بين الأمم.

4.5. المواطنة العالمية والحق في السلام:

إن فكرة تشكيل تجمع مسالم على الوجه الأكمل بالنسبة إلى كافة الشعوب الموجودة على الأرض يمكن عدّها بمثابة المبدأ القانوني، بل يمكن عدّها بمثابة المبدأ القانوني بل يمكن أن نعدها قابلة لتحقيق على الصعيد الواقعي في نظر كانط، إن أدركنا بأن الساحة الأرضية مكان مشترك بين الجميع، ويحقق لكل إنسان من أي مكان فيها أن يدخل في علاقات تبادل مع أي إنسان آخر، ومن هنا تظهر السياسة الكونية عند كانط يحدد ما يظهر الحق المعموري المنبثق عن اتحاد ممكن بين الشعوب في ظل قوانين كونية تحدد علاقاتهم المتبادلة بحيث تكون كل أفعاله نحو الغير أفعال كلية وهذا ما أكدّه كانط في قوله: "... كل الأفعال المتعلقة بحق الغير والتي لا تكون قاعدتها قابلة لأن تكون قاعدة عمومية هي أفعال غير عادلة ..."⁴⁷، فكانط من خلال هذه القاعدة " يريد تجاوز فكرة حدود البلد الواحد فكما أن سكان بلد ما ينبغي أن يرقوا جميعا إلى مستوي المواطنة، وينبغي اعتبار جميع سكان المعمورة من الوهلة الأولى كائنات

بشرية بأنهم معنى الكلمة ذلك أن الإنسان ما هو إنسان منطلق وهدف لهذا السعي أنه الإنسان الشخصي والإنسان الدولة، والإنسان الأمة والإنسان العالمي⁴⁸.

كما يعتبر كانط أن الأمم في العلاقات القائمة بينهما تشبه المواطنين في علاقاتهم المتبادلة، أنها في حالة حرب دائمة في ما بينها، حيث أن تهديد بالحرب والصراع القائم بصورة متواصلة، ولتفادي هذا الصراع وتحقيق سلام دائم يتعين على كل أمة أو دولة أن تدخل مع الأمم الدول الأخرى في شراكة هي نسخة عن الشراكة التي تضبط العلاقات بين المواطنين داخل الأمة الواحدة وهذا ما يؤكد في قوله: "... ينبغي أن تقوم الشعوب على أساس نظام اتحادي بين دول حرة... لا بد لكل شعب أن يطلب إلى الشعب الأخر أن يشاركه في نظام شبيه بالدستور المدني الذي يرب فيه كل ظرف ضمنا لحقوقه..."⁴⁹، وهذا الشكل الذي تحتاج إليه المعمورة السياسية من أجل بلوغ السلام الكوني الدائم يتطلب حسب كانط دستور قانوني يؤمن حق التمتع بالسلام لكل إنسان والانتماء إلى العالم بوصفه مواطنا عالميا ففكرة السلام لا تستقيم دون دستور، وفكرة الدستور هي التي تقن العلاقات السياسية سواء على الصعيد الداخلي، أو على الصعيد الخارجي، وقد استأنف كانط التأكيد على أهمية الدستور أثناء استغلاله على صياغة شروط تحقيق السلام بين البشر "فكل دستور قانوني يخضعون له أشخاص يتمتعون بالحرية الكافية يقوم على:

القانون المدني: الذي يكون الناس في شعب ما.

قانون الشعوب: الذي ينظم علاقات الدول ببعضها مع البعض.

قانون المعمورة السياسية: من حيث اعتبار الناس والحكومات في علاقاتهم الخارجية وفي تأثير بعضهم في بعض وكأنهم مواطنون مدينة واحدة"⁵⁰، ونفهم من هذا أن القانون الأول يحدد الحق المدني للإنسان في الدولة، ويحدد القانون الثاني حق الإنسان في نطاق العلاقات بين الدول بينما يحدد القانون الثالث نمط الحق المعموري الذي يشمل الإنسانية قاطبة في جميع أرجاء المعمورة.

6. الخاتمة:

إن فكرة الكونية عند كانط لا تخرج عن إطار العقل، فالحياة السياسية لا تستقيم في نظره إلا في ارتباطها بالأخلاق بحيث يكون التشريع الذاتي هو المجسد للدولة الكونية، كما يشترط في التوازن السياسي توفر عدالة عمومية تقي على أسباب الحروب والضغائن والصراع والدستور الجمهوري هو القادر على تكريس الحرية الفردية وخلق فضاء عام تحترم فيه جميع الأفراد. وتعميم النظام الجمهوري في جميع المعمورة يضمنه السلام الدائم للإنسانية جمعاء (حق كوني).

لقد حاول كانط بمشروعه السياسي أن يقدم للإنسانية الحل للنزعات والصراعات التي يمكن أن تؤثر في السلام الكوني لهذا راهن كانط على العقل كمشروع للقوانين باعتباره واحد بين البشر وهذا يجعل الإنسانية تراجع سلوكها وأفعالها، وفق قواعد العقل بحيث تكون مطابقة للواجب، كما أعطي كانط في مشروعه السياسي الأسبقية للأخلاق على السياسة، لأن الأخلاق وحدها القادرة على إقامة علاقات سياسية بين البشر تتميز بالسلمية والأبدية وبالتالي فالإنسانية والعقلانية والكونية هي التي مثلت الركن الأساسي والمبادئ العامة للفلسفة الكانطية، هذه الأسس والمبادئ سوف تلقي اهتمام من قبل الفلاسفة المعاصرة.

5. قائمة الإحالات:

- (1) هيربرت ماركيز: العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979، ص44
- (2) نفسه: ص210.
- (3) جيل دولوز: فلسفة كانط النقدية، ترجمة، أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2008، ص9
- (4) إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، ترجمة: موسي وهبيت، مركز الإنماء القومي، بيروت، 2008، ص9
- (5) نفسه، ص54.
- (6) نفسه، ص48.
- (7) نفسه، ص54.
- (8) أندري لالاند: الموسوعة الفلسفية، م1، ترجمة، خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت ط2، 2002، ص1161
- (9) جمال أحمد سليمان: أنطولوجيا الوجود عند إيمانويل كانط، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص144
- (10) إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، ص ص (187، 189).
- (11) عبد الله محمد الفلاحي: نقد العقل بين الغزالي وكانط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 3003، ص234.
- (12) يوسف كرم: العقل والوجود، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص84.
- (13) إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، ص 64.
- (14) يوسف كرم: العقل والوجود، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص83.

- (15) عبد الله محمد الفلاحي: نقد العقل بين الغزالي و كانط، مرجع سابق ص 264.
- (16) إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، مرجع سابق، ص 378، 382.
- (17) سمير بلكفيف: إيمانويل كانط فيلسوف الكونية، دار الأمان، الرباط، 2011، ص 25.
- (18) إيمانويل كانط: نقد العقل العملي، ترجمة أحمد الشيباني. دار اليقظة العربية، بيروت 1966، ص 418.
- (19) توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، 1985، ص 418.
- (20) إيمانويل كانط: نقد العقل العملي، ص 107.
- (21) محمد جديدي: ما بعد الفلسفة مطارحات روتيه، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، 2010، ص 120.
- (22) ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو: جدل التنوير، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2006، ص 23.
- (23) توم تومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة، سعيد هجرس، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 2004، ص 178.
- (24) كمال دومنير: المدرسة النقدية لمدرسة فرانكفورت، منشورات الاختلاف، الجزائر، الجزائر، 2010، ص 15.
- (25) محمد الشيخ: نقد الحداثة في فكر هيدغر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2008، ص 461.
- (26) محمد الشيخ وياسر الطاهري: مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص 12.
- (27) زيفيتان تودوروف: روح الأنوار، ترجمة، فاطمة قويع، دار مجد علي للنشر، تونس، 2007، ص 48.
- (28) محمد الشيخ وياسر الطاهري: مقاربات في الحداثة، وما بعد الحداثة، ص 13.
- (29) نفسه ص ص 13-14.
- (30) زيفيتان تودوروف: روح الأنوار، مرجع سابق ص 10.
- (31) إيمانويل كانط: ما الأنوار؟، ترجمة، نعيمة عبد الرحمان وفؤاد مليت، مجلة آيس، العدد 1، جوان 2015، ص 7.
- (32) نفس المصدر ص 8.
- (33) إيمانويل كانط: تأملات في التربية، ترجمة محمد بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس، 2005، ص 85.
- (34) إيمانويل كانط: ما الأنوار؟، ص 7.
- (35) كانط: تأملات في التربية، مصدر سابق، ص 8.
- (36) محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، دار إفريقيا الشرق، بيروت، ط2، 1998، ص 28.
- (37) محمد جديدي: ما بعد الفلسفة مرجع سابق ص 118 وولتر، ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة، مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 282.

- (38) بور ريكور: الكوني والتاريخي، ترجمة، حسن بن حسن <http://www.hurriyatsudn.com> نشرت يوم 23 ماي 2010. نشرت 12:00 سا.
- (39) بليمان عبد القادر: الأسس العقلية للسياسة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 109.
- (40) إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة، نازلي إسماعيل حسني ومحمد فتحي الشنيطي، دار موقف للنشر، للجزائر، 1991، ص 268.
- (41) بليمان عبد القادر: الأسس العقلية لسياسة، مرجع سابق ص 110.
- (42) إيمانويل كانط: نحو السلام الدائم، ترجمة وتقديم، نبيل الخوري، دار صادر، بيروت 1989، ص 50.
- (43) بليمان عبد القادر: الأسس العقلية للسياسة، ص 113.
- (44) إيمانويل كانط: نحو السلام الدائم، مصدر سابق ص 20.
- (45) فريال حسن خليفة: الدين والسلام عند كانط، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص 146.
- (46) إيمانويل كانط: نحو السلام الدائم، مصر سابق، ص ص (88، 89).
- (47) مصدر نفسه: ص 174.
- (48) سمير لكفيف، إيمانويل كانط فيلسوف الكونية، مرجع سابق ص 174.
- (49) إيمانويل كانط: مشروع السلام الدائم، مصدر سابق ص 40.
- (50) نفس المصدر: نفس الصفحة.